المحاضرة رقم: 06

نظرية الخلق (الإنتاج الأدبي)

إذا كانت نظرية التعبير نتاجا لصعود البرجوازية وتقدمها، فأن نظرية الخلق كانت نتاجا لفكر الطبقة نفسها في الزمن الذي كادت تأفل فيه إبّان أزمتها الفكرية.

ظهرت نظرية (الإنتاج الأدبي) في أواخر القرن 19، في عصر الانحطاط السياسي والاقتصادي والأدبي والفكري، إذ تحول الفن والإبداع إلى سلعة في ظل الرأسمالية، وهي حركة تدل على رد عنيف على المستوى المتردي للفن والأدب، فنادت إلى ضرورة البحث عن الفن الخالص وعدم ارتباطه بأي وجهة سياسية أو اقتصادية أو دينية، ورفضت أن يستغل الفن والأدب لأغراض نفعية. (عدم الارتباط لا بالدين، العلم، المجتمع). وهذا من أجل أن يعود الأدب إلى مكانته الراقية، وأن يعود الفن إلى برجه السامي.

أسسها الفكرية والفلسفية:

تستند نظرية الخلق إلى الفلسفة المثالية الذاتية شأنها شأن نظرية التعبير، فقد قامت على أفكار كانت في الذاتية المتطرفة، التي تفصل بين الجميل والمفيد، بل تضع صفة التناقض بينهما، فأن كان "أفلاطون" يرفض الفن لأنه غير مقيد، فأن "كانط" على العكس يرفض الفن إذا ارتبط بأية فائدة أو منفعة أو غاية. وقد ربط "كانط" العمل الفني بخصائص ذاتية ومنها:

1- كل عمل ذو وحدة جوهرية فنية تبين الغاية من العمل الفني (بنية العمل الإبداعي هي التي تجعل منه عملا فنيا).

2- لكل شيء غاية إلا الفن أو الجمال، فنحس أمامه بمتعة تكفينا السؤال عن غايته. ولو وجد عالم للجمال وحده لكان كافيا لأن يكون غاية في حد ذاته.

3- اقتران الجمال بالخير، يجعل الشيء الجميل غير خالص لجماله.

4- والحكم النقدي على العمل الفني يجب أن يكون هو الآخر ذاتيا مبنيا على الذوق لا يخضع للعقل والمنطق أو السؤال عن الغاية.

أ.د سعدية بن ستيتي

ومن بين المؤسسيين أيضا لنظرية الخلق نذكر الفيلسوف "هيغل" الذي رأى أن مضمون الفن هو فكرة الجمال المستقلة عن مهمته في الحياة.

وقد قال "بيتوفيل جوتييه" معبرا عن الفكرة ذاتها: "لا وجود لشيء جميل إلا إذا كان فائدة له، وكل ما هو نافع قبيح".

ومن بين أعلام هذه النظرية نذكر: الشّاعر الفرنسي بودلير (1821-1867) وهو أول من قال بفكرة الفن للفن، ويرى "بودلير" أن موضوع الشّعر هو الشّعر نفسه، وغاية الكتابة الشّعرية هو المتعة بالكتابة الشّعرية أولا.

ومن الأعلام نذكر "إيدجار ألان بو"، "أ. س برادلي" و"تو كروتشيه"، و"ت. س إليوت"، "توماس أرنست هيوم"، "عزرا ياوند"، "جون كرورانسوم"،...الخ.

لكن معظمهم عاد عن مبادئ نظرية الخلق، وربطوا العمل الإبداعي بالأخلاق والمجتمع والعلم والدين.

أسس نظرية الخلق:

1- الشّعر والحياة:

لقد ذهب "أ. س برادلي" إلى اعتبار أن الحياة تملك الحقيقة ولا ترضي الخيال، أما الشّعر فأنه يرضي الخيال ولا يمتلك الحقيقة الكاملة...فالشّعر والحياة ظاهرتان متوازيتان لا تلتقيان.

2- الشّعر والموضوع:

لا تهتم نظرية الخلق بالموضوع أو الفكرة أو المضمون أو المحتوى، أنما تهتم بالكيفية التي يتبنّاها الشّاعر ليحوّل الموضوع من مستواه الخارجي إلى مستوى فني.

3- الشّعر والعواطف والانفعالات:

أن العواطف والتجربة والموضوع والمناسبة لا تؤثر في القيمة الفنية للعمل الإبداعي، فالأدب ليس تعبيرا عن الانفعال كما تزعم نظرية التعبير، وإنما تكون القيم الفنية لقوّة الابتكار والخلق الأدبي المتمثلة في جعل اللّغة قادرة على الإيحاء وامتلاك قوّة التأثير.

أ.د سعدية بن ستيتي

4- اللغة والخلق الفني:

اللغة مادة الأدب، ومعنى الخلق الفني هو سيطرة الأديب على اللغة بما يضيفه عليها من ذاته وروحه، فاللغة وسيلة للخلق الأدبي أو مادته الخام، التي تمنحه موسيقاه وألوانه.

5- العمل الأدبي خلق حر:

الفن خلق حر، ويقول "كروتشيه" في ذلك: "أن الفكر وسيلة للحياة تصبح في لحظة ما وسيلة وأداة للفكر نفسه، ونحن ننتقل في هذه الدائرة من الفكر إلى الحياة ومن الحياة إلى الفكر، ثم نستأنف الطواف وهكذا دواليك، لكن استئناف الطواف مصحوب دائما بخلق شيء لم يكن موجودا وهو ثمرة فعل حر".

6- المعادل الموضوعي، الفن الموضوعي:

لقد قدم لنا "ت. س إليوت" مفاهيم لما يسميه بالفن الموضوعي، ومن ثم النقد الموضوعي مؤكدا أن الشّعر خلق، إذ يرى "إليوت" أن الشّعر ليس تعبيرا عن المشاعر والعواطف والانفعالات بل هو هروب منها، وليس الشّعر تعبيرا عن الذات الشخصية، بل هو هروب منها، أنما الشّعر خلق.

ملاحظات عامة عن نظرية الخلق:

- أن كثيرا من الفلاسفة والنقاد والأدباء قد رفعوا راية الجمال في وجه المجتمع الرأسمالي الذي حول كل شيء إلى سلعة. وقد فصلوا بين المفيد والجميل لأن الجميل يصبح غاية في حد ذاته، وهذا يعني أنه على الناس أن يتوجهوا نحو الفن، لا أن يتجه الفن نحو الناس. وأنهم رأوا أن الواقع المحيط بهم قبيحا وشكّوا في مقدرة الإنسان على التغيير، فلم يجدوا إلا وسيلة التحدث عن الجمال الخالص فنادوا بها.
- لقد ساهمت نظرية الخلق في التأكيد على السّمو الفنّي للنّص الأدبي، ولفتت انتباه النقاد والباحثين إلى ضرورة البحث في العلاقات الداخلية للنّص دون سواها.
- نظرية الخلق مليئة بالثغرات وانتهت إلى نتائج خاطئة، فالموضوع والعواطف والانفعالات تؤثر كثيرا في صياغة العمل الأدبي، خاصة في الجانب الشكلي منه، كذلك أن الفارق بين عمل وآخر يعود إلى اختلاف الخبرات الاجتماعية.

أ.د سعدية بن ستيتي

– أن فكرة التأمّل التي تنبني عليها نظرية الخلق (كما دعا إليها ت. س إليوت) لا تحقق الموضوعية، فالعلم المعاصر لا يؤيد فكرة تفتيت الإنسان إلى قوى ومكان منفصلة.

– أن فكرة المعادل الموضوعي تحيلنا إلى اعتبار أن العمل الأدبي هو معادل موضوعي لشيء خارجي، وهنا يكمن التناقض.

أ.د سعدية بن ستيتي